ناجي العلي: سحر الكرامة

بطاقة تعريف

فايز سارة

سرّ الاهتمام بعد ١٥ عامًا

خمسةَ عشرَ عامًا مرّت على اغتيال ناجي العلي. لكنّ طُولها لا يكفي لانقطاع طرح الأسئلة التي تتّصل بالرجل وأعماله وأسباب اغتياله. بل إنّ الأمر يتعدّى الأسئلةَ إلى البحث عن استمرار الاهتمام العربيّ بهذا الرجل، وهو ما يتجلّى مثلاً في إعادةِ نشر أعماله في كثير من الصحف والمجلاّت العربيّة، إضافةً إلى تواتر كتابة المقالات والدراسات عنه.

هذا الاهتمام إنّما يعني واحدةً من حالتيْن، أو الاثنتيْن معًا. الأُولى أنّ هناك مسعًى إلى استعادة الرجل، بما كان يمثّله من ظاهرةٍ برزتْ واستقرّتْ في الحياة العربيّة، وفي الوجدان العربيّ، لسنوات طويلة. والثانية أنّ هناك مسعًى إلى تعريف الجمهور العربيّ بناجي العلي، أو إلى تعميق معرفةِ هذا الجمهور به، وبخاصةٍ في أوساط الفئات الشابّة التي لم يُتَحْ لها التعرّفُ بصورةٍ مباشرةٍ على الرجل وتراثه الإبداعيّ.

ذكرى لقاء في لندن

في خريف العام ١٩٨٦ التقيتُ ناجي العلي في مطعم لندنيّ مع ثلاثة أشخاص آخرين. كان محورَ اللقاء حياةُ ناجي العلي في عاصمة الضباب، بعد أنْ عَجزتْ أيٌّ من البلدان العربيّة عن احتمال ريشته، فدفعتْ به الكويتُ (آخرُ العواصم العربيّة التي أقام فيها) إلى المغادرة إلى لندن على نحو ما كانت قد فعلتْ به بيروتُ على أثر الاجتياح الإسرائيليّ عامَ ١٩٨٢.

كان ناجي العلي في لقائنا اللندنيّ يُرسل إشاراتِ الإحساس بغربته عن محيطه ووسطه ولغته. ولم يكن هذا الإحساسُ وليدَ العداء للآخر أو الاختلافِ معه، بمقدارِ ما كان يمثّل افتقادًا إلى المحيط الذي ارتبط به ناجي العلي في مسار استمرّ نحو خمسين عامًا أمضاها بين طفولته الأولى في فلسطين ويفاعته في لبنان، وتنقّل بَعْدها للعمل في كلٍّ من السعوديّة والكويت، وصولاً إلى لندن. غير أنّ إحساس ناجي ذاك لم يَمْنعه من أن يشير إلى أنّ الحال لا يُمْكن أن تستمرّ في تردّيها وتدهورها، بل إنّ الأمور سوف تتحسّن، وسوف يأتي الوقتُ الذي يعود فيه إلى محيطه وجمهوره.

وإذ أستعيد من الذاكرة لقائي بناجي، فإنّما أستعيد بعضًا من ملامح الرجل: ببساطته، وتواضعِه، وحضوره الحيّ، وقدرتِه المذهلةِ على التقاط الإشارات وإرسالها من غير عناء أو تصنّع ـ وكلُّها مَلامحُ تَرْتبط أشدَّ الارتباط، على نحو ما أرى، بحياة الرجل وظروفِه التي صاحبتْه من يوم مولده في قرية الشجرة الفلسطينيّة عام ١٩٣٦ وحتى استشهاده برصاصاتٍ غادرةٍ أُطلقتْ عليه في لندن في صيف العام ١٩٨٧.

من الشجرة إلى المقبرة

وُلد ناجي العلي لأُسْرة فلاحيّة بسيطة في قرية كان لها حضورٌ بارزٌ في ثورة فلسطين الكبرى التي انطلقتْ عام ١٩٣٦. وكان في الثانية عشرة من العمر تقريبًا، عندما دفعتْ قواتُ الهاغاناه الصهيونيّة مَنْ تبقّى من أهالي قريته إلى المغادرة إلى لبنان، بعد معركة عنيفة هي بين أشرس المعارك في فلسطين، استُشهد فيها الكثيرُ من الرجال والشبّان دفاعًا عن القرية.

في لبنان بدأ فصلٌ جديدٌ من حياة الناجي بوصول عائلته إلى بنت جبيل في الجنوب، حيث مكثتْ أشهرًا تحت الأشجار، إلى أن استضافها أحدُ فقراء البلدة، قبيْل توجُّهها إلى مخيّم عين الحلوة القريب من صيدا. وهناك نُسج القسمُ الأكبرُ من تفاصيل ناجي العلي، وتأسّسَ وعيُه الأوّلُ وسطَ عذابات المخيّم وظروفِ سكّانه الشديدةِ القسوة.

ورغم أنّ التعليم الذي تلّقاه ناجي في مدرسة اتّحاد الكنائس المسيحيّة، ثم في المدرسة المهنيّة في طرابلس بشمال لبنان، كان يُمْكن أن يحدِّدَ له مسارًا معيّنًا في حياته، فقد أصرّت روحُه على أن تغرِّد في اتّجاه آخر. فاستجاب لنداءات الموهبة عندما انتسَبَ إلى مدرسةٍ لتعلّم الرسم، قبل أن يَبْدأ في إطلاق رسومه على جدران بيوت المخيّم، في تعبيرٍ قد يكون هو الأوضحَ عن ارتباطه بالمخيَّم وبكلّ ما يعنيه ويجسِّده ـ وهي صفة لم تفارقْه إلاّ بالإكراه: فناجي لم يغادر المخيَّمَ إلا لظروف العمل، أو السفر مُجْبرًا على نحوِ ما صارت إليه الحالُ بعد الاجتياح الإسرائيليّ للبنان في صيف عام ١٩٨٢.

ومثلَ الكثيرين من فلسطينيّي الشتات، تأثّرَ ناجي بنهوض الحركة القوميّة العربيّة، التي كان محورُ نهوضها ارتباطَها بالقضيّة الفلسطينيّة. وقد جعلتْ هذه الحركةُ من مخيَّم عين الحلوة أحدَ ميادين عملها، حيث نشطتْ حركةُ القوميّين العرب منذ أواسط الخمسينيّات. وبتأثيرها نما وعيُ ناجي السياسيّ وتطوّرَ ليأخذ مضمونًا ثلاثيَّ الأبعاد،

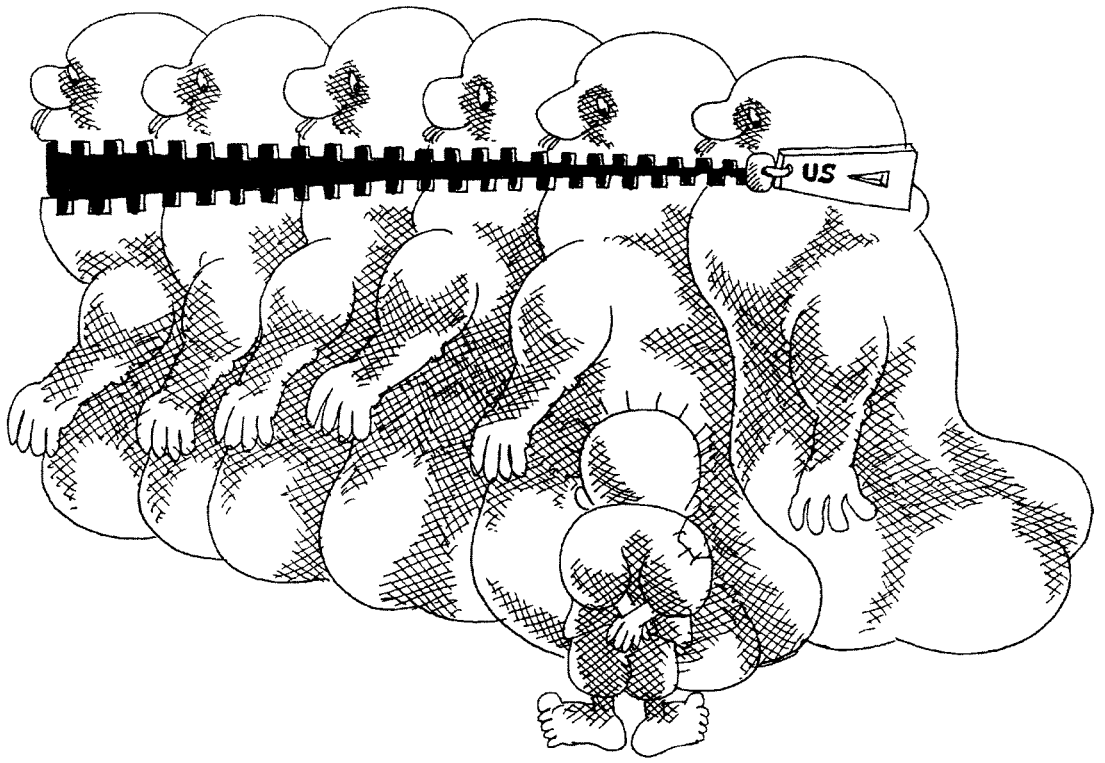

(جريدة القبس، ١٩٨٥/١١/٨)

لم تَقْتصر معارك ناجي على العدوّ الإسرائيليّ، بل وسّعها لتَشْملَ القيادات الفلسطينيّة والعربيّة والدوليّة

(جريدة القبس، ١٩٨٧/٧/١١)

«مضمون الانتماء الفلسطينيّ بالنسبة إليّ يأخذ أشكالاً قوميّة وإنسانيّة»

تداخلتْ فيه المسألةُ الوطنيّةُ الفلسطينيّةُ، بالقضيّة القوميّة، وبالبعد الاجتماعيّ. وهذا التداخل هو ما يعبّر عنه ناجي بالقول: «لم أكن فلسطينيّاً خالصًا في حياتي الشخصيّة والثقافيّة... ومضمونُ الانتماء الفلسطينيّ بالنسبة لي يَأْخذ أشكالاً قوميّة وإنسانيّة... أنا شخصيّاً منحازٌ لطبقتي، منحازٌ للفقراء.»

وفق هذه الروح والرؤيا، انخرط ناجي العلي في مسيرته الإبداعيّة، التي كانت بدايتُها اشتغالَه في مجلة **الطليعة** الكويتيّة عام ١٩٦٣. وقد تابعها بانتقاله إلى جريدة **السياسة** في العام ١٩٦٩، وبقي فيها حتى العام ١٩٧٤، عندما عاد إلى بيروت ليشتغل رسّامًا للكاريكاتور في جريدة **السفير** عند صدورها في العام ذاته.

ورغم أهميّةِ ما قدّمه ناجي العلي من أعمال في الكويت، فقد كانت أعمالُه في **السفير** هي الأكثر تميُّزًا وحضورًا، وذلك نتيجةً لعوامل متعدِّدة أبرزُها: طبيعةُ الحريّات المتاحة في لبنان رغم ظروف الحرب الاهليّة، وكونُ لبنان في تلك الفترة ساحةً رئيسةً من ساحات العمل الوطنيّ والفلسطينيّ. وثمّة عاملٌ ثالثٌ ـ ولعلّه الأهمّ ـ وهو عودةُ ناجي إلى العيش في مخيَّم عين الحلوة الذي لم تتغيّر الحياةُ فيه كثيرًا عمّا كانت عليه قبل بروز الحضور الفلسطينيّ. يُضاف إلى ذلك كلّه عاملٌ رابعٌ يتعلّق بتطوُّر تجربته الفنيّة ـ الإبداعيّة، إذ إنّ ناجي العلي آنذاك كان قد «تعرَّف على مفرداته، واستنبط مداليلَها بوعيه الشخصيّ بها وتعاطفِه معها،» كما قال بلند الحيدري.

عَبْر لوحات الكاريكاتور خاض ناجي العلي في مرحلته اللبنانيّة معاركَ متواصلةً. ولم تقتصرْ هذه المعارك على العدوّ الإسرائيليّ، بل وسّعها لتشملَ القيادات الفلسطينيّة والعربيّة والدوليّة التي تَسْتخدم الإخضاعَ والتضليلَ لإبعاد الفلسطينيِّين عن السير في طريق العودة إلى وطنهم. وهذا ما جعل دائرةَ الأعداء من حوله تمثِّل حلقةً قويّةً ممتدّة، وكان ذلك بين عوامل حاسمة أَجْبرتْه على مغادرة بيروت إلى الكويت عام ١٩٨٣.

ولأنّ ناجي العلي لم يغيِّر من أفكاره وقناعاته، ولا من من محتويات لوحاته، فقد بدا صعبًا بقاؤه في الكويت، التي صارت أقلَّ احتمالاً للرجل في ظلّ تدهور النظام الرسميّ العربيّ بعد عام ١٩٨٢. فأبعِد من الكويت، ليذهب إلى لندن مُكْرهًا بعدما بدا من الصعب أن يَحْصل على مساحة من الأرض العربيّة تكفي ليضع رجليْه عليها.

ناجي: الصفات الشخصيّة والشخصيّة الاجتماعيّة

كانت الصفاتُ الشخصيّةُ لناجي العلي شديدةَ التأثير والحضور في شخصيّته الاجتماعيّة. فمن بساطته وُلِد تعاملُه مع محيطه، ومن شفافيّته كان وضوحُه وصراحتُه، ومن طيبته وتواضعه كان إصرارُه على الحقّ والحقيقة، ومن إيمانه بالحقّ وُلِدَ إصرارُه على الاستمرار في مواقفه. وكلُّ هذه الصفات جعلتْه هدفًا لضغوط وتهديدات وصلتْ حدَّ التهديد بالقتل، قبل وصولها إلى حدّ التنفيذ على يد قاتلٍ مأجورٍ في العام ١٩٨٧.

كان ناجي العلي شخصيّةً اجتماعيّةً بكل معنى الكلمة. فقد كان صاحبَ خيارات ومواقف عمليّة لا تَنْتسب إلى دائرة التفكير والتنظير المألوفة في المواقف الفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة. ولهذا السبب، ربما، كان له جمهورٌ وخصومٌ: جمهور مِنَ الذين يحبّون أعماله، وخصومٌ يرون في أعماله مناشيرَ سريّةً تحرِّك الجمهورَ ضدّهم. وكان جمهورُه يتجاوز حدودَ البلدان والطبقات الاجتماعيّة والأديان والطوائف، بل يتجاوز العائلاتِ والفئاتِ الفكريّةَ والسياسيّةَ والمهنيّةَ على انقساماتها. وأما خصومُه فقد كانوا يجسِّدون طيفًا من الحكّام وأصحاب السلطة والمستفيدين من بلاطها. لكنّ الطريف هو أنّ خصومَه، على حدّيّة مواقفهم، لم يكونوا بعيدين عن التأثر بما كان يُبْدعه من لوحات، بعضُها كان يتناولهم بالشكل، وربما بالاسم أيضًا، واضعًا إيّاهم في إطار تشكيل سياسيّ ـ اجتماعيّ لا شخصيّ.

بعد عقد ونصف العقد من السنوات على غياب ناجي العلي، يبدو أنّه مازال حاضرًا معنا في الصحف والمجلاّت والكتب. والأهمّ من ذلك أنّ لوحاته التي تَنْشرها الدوريّاتُ اليوم تبدو وكأنّها رُسمتْ في اليوم السابق فحسب، وكأنّ ناجي العلي بعد كلّ سنوات الغياب هذه مقيمٌ بيننا في مكانٍ لم يبرحْه قطّ.

دمشق

فايز سارة

كاتب وصحافي من سورية.